﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان علاقة الرسول وأزواجه بالمؤمنين بعد إبطال نسبة أيِّ واحدٍ منهم إليه

بعد أنْ بَيّنَتِ الآيةُ السابقةُ حُرْمَةَ دعوةِ الأبناء لغير آبائهم، وكان الصحابيُّ الجليلُ زيدُ بنُ حارثةَ يُدْعَى زيدَ بن محمّد: نزلت هذه الآيةُ لتُبَيّن علاقةَ النبيّ ﷺ بأتباعه المؤمنين، وأنَّها أعمُّ مِنْ حصرها في شخصِ زيد أو غيره؛ وتُبَين كذلك علاقةَ أزواجه رضي الله عنهن بهم، وأنهنَّ أمّهاتٌ لجميع مَنْ أسلم مع الرسول وخالطَ الإيمانُ بشاشةَ قلبِه؛ كما نزلت الآيةُ لتضبط عَلاقةَ المؤمنين ببعضِهم، وفْقَ ما أمَرَ به ربُّ العالمين في كِتابِه الكريم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلَىٰ﴾: (ولي) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ؛ يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ يُقارِبُني، وفُلانٌ أوْلَى بِكَذا، أيْ: أحْرَى بِهِ وأجْدَرُ[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: 68]، وقال هنا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

2) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: (رحم) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ؛ يُقالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ لَهُ وتَعَطَّفَ عليه؛ والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ: بِمَعْنًى، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ؛ ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذا، لِأنَّ مِنْها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ لَهُ مِنْ ولَدٍ[2]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (رحم).

وأصله خروجهم من رَحِمِ أمٍّ واحدة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6] وقال هنا: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1].

3) ﴿مَّعْرُوفًا﴾: (عرف) أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى السُّكونِ والطُّمَأْنينَةِ، والعُرْفُ: المَعْروفُ؛ وسَمّيَ بِذَلِكَ لِأنَّ النُّفوسَ تَسْكُنُ إلَيْهِ[2]، والمَعْروفُ: اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل أو بالشّرعِ حُسْنُهُ، والمنكر: ما يُنْكَرُ بهما؛ قال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، وقال: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: 17]، ولهذا قيل للاقتصاد في الجود: مَعْروفٌ، لمّا كان مستحسنًا في العقول وبالشّرع، نحو: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6][3].

4) ﴿مَسْطُورًا﴾: (سطر) أصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلَى اصْطِفافِ الشَّيْءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ، وكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ[4]، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصّفّ من الكتابة، ومن الشّجر المغروس، ومن القوم الوقوف؛ وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]، وقال: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: 1 - 2]، وقال هنا: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، أي: مُثْبَتًا مَحفوظًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضوابطُ علاقة النّبيِّ وأزواجِه والمؤمنين ببعضهم مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ

بيَّنَت الآيةُ الكريمةُ أنّ النَّبيَّ ﷺ أحقُّ بالمؤمنين مِنْ أنفسهم وأولى منها في المحبّة والطاعة؛ فإذا دعاهم إلى أمرٍ، ودعتْهم أنفسُهم إلى خلافه: وجب عليهم أنْ يُؤثِروا ما دعاهم إليه على ما تدعوهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (سطر).

إليه أنفُسُهم، لأنّه لا يدعوهم إلّا إلى ما ينفعهم، أمّا أنفُسُهُم فقد تدعوهم إلى ما يضرُّهم، ثم بيَّنتِ الآيةُ منزلةَ أزواجه ﷺ بالنسبة للمؤمنين، وأنّهنَّ بمنزلة أمّهاتهم في الاحترام والإكرام، وفي حرمة الزواج بهنّ، وبيّنَتْ كذلك أنَّ الأقارب بعضُهم أولى ببعضٍ في التوارث، وفي تبادُل المنافعِ، وبيّنت أنَّ هذه الأولويّةَ ثابتةٌ مسطورةٌ في اللوح المحفوظ، وفي آياتِ القرآنِ التي سبق نزولُها على رسول الله، وأنَّ عليهم جميعًا أنْ يَعمَلوا بما هو مِن عند الله، ويتركوا ما هو مِن عند أنفسهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

جاءت جملةُ مُفتَتَحِ الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال، الذي تُجيب فيه الآيةُ الثانيةُ عن سؤال أثارتْه الآيةُ السابقةُ في نفس المتلقّي بعدَ إبطال نسبة زيد بن حارثة إلى الرسول، عَنْ "مَدَى صِلَةِ المُؤْمِنينَ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ، وهل علاقَة الأجانبِ مِنَ المُؤْمِنينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ سَواءٌ؟ فَلأجَلِ تَعْليمِ المُؤْمِنينَ حُقوقَ النَّبيِّ وحُرْمَتَهُ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُبَيِّنَةً أنَّ النَّبيَّ أوْلَى بِالمُؤْمِنينَ مِنْ أنْفُسِهِمْ"[2].

تعليمُ المؤمنين حقوقَ النّبيِّ ﷺ وحُرْمَتَه

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ من قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ لتعريف العهد، فالمقصود به سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين، إذِ الآية تهدفُ في المقام الأول إلى توضيح علاقة الرسول بأتّباعه، بعد النّهي القرآنيّ عن نسبة أحدٍ منهم إليه بصفة خاصّة، وعن نسبة أحدٍ من الأبناء إلى غير أبيه الحقيقيّ بصفة عامّة.

المقصودُ رسولُ الله، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 175 وما بعدها بتصرف.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

دلالة التعبير بوصف النبوّة دونَ الرِّسالة:

على المؤمنين التزامُ أوامر النبي واجتنابُ نواهيه وإن لم يعرفوا أسبابَها وأسرارَها

اصطفى النظمُ الكريمُ التعبيرَ بوصف النُّبَوَّةِ في الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ لِما يدلّ عليه من أنّ الله تعالى يُنْبِئُ المصطفى بعظيم الأخبار، ويُنْبِئُه كذلك بدقائقِ الأحوال التي تَخُصُّ شؤونَ الناس، وتخصُّ شؤونَ الدنيا والآخرة، ووجهُ التعبير به هو الإشارة إلى ما يجب على المؤمنين من الالتزام بأوامر النَّبي ﷺ ونواهيه بصفة عامّة، وأوامرِه ونواهيه فيما يَخُصُّ الظِّهار والتَّبنّي بصفة خاصّة، وإنْ لم يُفصِح لهم عن السبب الكامن وراء الأمر أو النهي، ثقةً فيما يُنَبَّأُ به من أخبار، وثقةً في حبّه لهم، وحِرصِه عليهم؛ وبذلك تكون طاعتُه أتمَّ وتوقيرُه أعلى[1].

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة:

أبوّةُ النّبيّ تَعُمُّ جميع المؤمنين، ولا تقتصرُ على مَنْ دُعوا أولادَه أو سُمّوا بنيه

في بيان علاقة النّبيّ بالمؤمنين عبّر النظمُ الكريمُ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ لِما تُفيده الاسميّة من ثبوت المعنى ودوامه، وليتأكّد من خلال التعبير بها أنَّ ولايةَ النّبيّ ﷺ وأُبوَّتَه وحبَّه وحرصَه يعمُّ جَميعَ المؤمنين، ولا يقتصرُ على مَنْ نُسبوا إليه، أو دُعوا بأولاده وبنيه دون غيرهم، لأن لا يتشكّك أحدٌ في ذلك، ويَقْبَلَ الجميعُ ما أوحيَ إليه وأبْلَغَهُم به بثقةٍ واطمئنانٍ.

دلالة التّعبير بصيغة المفاضلة ﴿أَوۡلَىٰ﴾:

النَّبيُّ أقربُ لكلِّ مُؤمنٍ مِن نفسه التي بين جنبيه

التعبير باسم التفضيل ﴿أَوۡلَىٰ﴾ في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ أشَدُّ ولايَةً - أيْ: قُرْبًا - لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ قُرْبِ نَفْسِهِ إلَيْهِ؛ وهوَ قُرْبٌ مَعْنَوِيٌّ، يُرادُ بِهِ: آثارُ القُرْبِ مِنْ مَحَبَّةٍ ونُصْرَةٍ وحرص على ما ينفع...، وهَذا الاسْمُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الأحَقِّيَّةِ بِالشَّيْءِ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ متعلّقه بِبِناء المُصاحَبَةِ والمُلابَسَةِ[2].

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 360 وما بعدها، بتصرف.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

معنى باءِ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

صلةُ الرسولِ بالمؤمنين شديدةُ الإحساس، وثيقةُ الرّباط

في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ باءٌ جارّة ومجرورٌ بها، يتعلّقان باسم التفضيل؛ وفي تعليقه بالباء التي تفيد الإلصاق إشارةٌ إلى شدّة القرب الذي يصل إلى حدِّ المعرفة الدقيقة والإحساس الصادق بما يضرّ المؤمنين وما ينفعهم، وهو دالٌّ على قوّة الترابُط ووثيق الصلة بين النَّبيِّ ﷺ وأتباعه.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حبُّ الرسولِ وولايتُه تشملُ جِنسَ مَنْ آمنَ بهِ في حياتِه وبعد وفاتِه

(أل) الدّاخلةُ على ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ هي التي للجنس؛ وفي التعريف بها دلالة على أنّ التعبير يشمَلُ كلَّ مَنْ أسلم مع الرسول ﷺ وخالط الإيمانُ بشاشةَ قلبه، سواءً أكان ذلك في حياة النبي أم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، إلى أنْ تقومَ السّاعةُ.

دلالة التّعبير بـ﴿أَنفُسِهِمۡۖ﴾ جمعًا:

النَّبيُّ أوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ المُؤْمِنِ

التَّعبيرُ بـ﴿أَنفُسِهِمۡۖ﴾ جمعًا في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ يَدُلُّ عَلَى أنَّ حُبَّ النّبيّ ﷺ لأفراد أمَّته أقْوى مِنْ حُبِّ كل فرد لنفسه، وحرصَه على كل واحد فيهم أكثرُ من حرص كل واحد على نفسه، وخوفَه على كل مؤمن منهم أشدُّ من خوف كل مؤمن على نفسه، فـ"الأنْفُسُ مُرادٌ بها جَمْعُ النَّفْسِ، والجَمْعُ لِلتَّوْزِيعِ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ آيِلٍ إلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الأنْفُسِ، أيْ أنَّ النَّبيَّ أوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ المُؤْمِنِ"[1].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

ولايةُ النبيّ بالمؤمنين تشمل كلَّ شؤونهم

جاء التعبيرُ في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مُطْلَقًا غيرَ مُقَيَّدٍ بِما يبيِّن حُدودَ الولاية ومداها، لأنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

الكَلامَ على تَقْديرِ مُضافٍ محذوف، أيْ: (أوْلَى بِمَنافِعِ المُؤْمِنينَ أوْ بِمَصالِحِ المُؤْمِنينَ)؛ واكتُفيَ بالمذكور وحُذِفَ المُضافُ قصدًا إلى تَعْميمِ كُلِّ شَأْن من شؤون المُؤْمِنينَ الصّالِحَةِ[1]، وفي الإطلاق أيضًا ما يوجبُ على المسلمين ضرورةَ أنْ يكونَ الرسولُ "أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمُه أنفذَ عليهم من حكمها، وحقُّه آثرَ لديهم من حقوقها، وشفقتُهم عليه أقدمَ من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خَطبٌ، ووقاءَه إذا لَقَحَتْ حربٌ"[2].

معنى واوِ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾:

قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ للتوسُّط بين الكمالَين، ووجهُ العطف هنا أنّه لمّا جرى ذكرُ منزلته وحقوقه على المؤمنين، جرَى أيضًا ذكرُ منزلةِ أزواجِه وحقوقِهنّ، لدخولهنَّ معه دخولًا بَدَهيًّا أوليًّا، ولأنَّهُنَّ أمّهاتٌ للمؤمنين كما أنّ النبيَّ ﷺ أبٌ لهم؛ فـ"عَطَفَ عَلَى حُقوقِ النَّبي ﷺ حُقوقَ أزْواجِهِ عَلَى المُسْلِمينَ، لِمُناسَبَةِ جَرَيانِ ذِكْرِ حَقِّ النَّبي، فَجَعَلَ اللهُ لَهُنَّ ما لِلْأُمَّهاتِ مِنْ تَحْريمِ التَّزَوُّجِ بِهِنَّ، بِقَرينَةِ ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾"[3].

أزواجُ النَّبي يدخلن معه في التكريم والتوقير وبيان الحقوق دخولًا أوّليًّا

دلالة التعبير بالأزواج مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ:

المراد بـ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: اللّائي تزوّجَهُنَّ رسولُ الله ﷺ بنكاحٍ وبَنَى بهنَّ، وصِرن يُعرفن بين المسلمين بأمّهات المؤمنين؛ فلا يدخل فيهنَّ مِلكُ اليمين، ولا التي لم يدخلْ بها الرسولُ، فـ"إضافة كلمة (أزْواج) إلى الضمير العائد إلى النَّبيِّ فيه تشريف وتكريم لهن، وبيانٌ للسبب في

تـوقـيرُ أزواجِ النَّبي فيه توقيرٌ واحـترامٌ للنَّبي نفسِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 523.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 268.

إنزالهنّ هذه المنزلة، ودلالةٌ على أنَّ توقيرَهن واحترامَهن من توقير النبي ﷺ واحترامه"[1].

فائدة التعبير بالأسلوب الخبريّ:

تـوقـيرُ الـنَّـبـيِّ واحـتـرامُ أزواجِه مـن الـبـدهـيّات التي لا مِراءَ فيها ولا جِدالَ

أوثر التعبير عن حقوق النَّبي ﷺ ومنزلته، وحقوق أزواجه ومنزِلتهن بالأسلوب الخبري في قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، دون الأمر أو النهي أو غيرِهما مِنْ أساليب الإنشاء: للدلالة على أنَّ ما يتضمَّنُه الخبر من أوامرَ ونواهٍ يُعَدُّ مِنَ البدهيّات والمُسلَّمات التي لا مِراءَ فيها ولا جدالَ، وأنّ على الجميعِ أنْ يعلموا ذلك ويلتزموا به.

بلاغة التّشبيه في الآية:

أزواجُ الـنَّـبـي أُمَّـهـاتٌ في التقدير والتوقير وحرمة الـزَّواج منهن

في قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، حُذف منه الوجهُ والأداةُ لقصد المبالغة؛ فيه شُبِّهتْ أزواجُ النَّبي بالأُمَّهات في استحقاق الاحترام والتقدير وفى حرمة زواج الرجال منهنّ. "ولأنَّ الأمر في الآية على التشبيه: لم يكنْ أزواجُ النبى كالأمَّهات في جواز الخُلوة بهنّ والنظر إليهن، وإنما كنَّ في ذلك كالأجنبيات"[2]؛ "والمعنى: أنّ ما أُمِرَ به رجالُ المؤمنين في حق نساء النّبىّ هو إنزالُهن منزلة الأمَّهات في التوقير والاحترام، وقضاءِ الحاجات، والحرص على راحتهن، وإنزالُهن منزلةَ الأجنبيّاتِ في الاختلاطِ والنظر، وعدمِ الإساءةِ إليهنَّ بقولٍ أو فعلٍ"[3].

معنى واوِ ﴿وَأُوْلُواْ﴾:

القرابةُ والرَّحمُ هما سببُ الإرث لا الانـتـسـابُ الجَعْليّ

الواو في قول الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ لعطف ما بعدها على ما سبقه عطفَ تشريعٍ على تشريعٍ، حيث جاءت هذه الجملةُ لإبطال ما كان سائدًا من ميراث الناس بعضهم بغير معيار الرحم، كما أبطلت الجملُ السابقةُ الظِّهارَ والتَّبنّي؛ فهو "أعْقَبَ نَسْخَ

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 361.
(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 82.
(3) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 361.

أحْكامِ التَّبَنّي الَّتي مِنْها ميراثُ المُتَبَنّي مَنْ تَبَنّاهُ والعَكْسُ: بِإبْطالِ نَظيرِهِ وهوَ المواخاةُ الَّتي كانَتْ بَيْنَ رِجالٍ مِنَ المُهاجِرينَ مَعَ رِجالٍ مِنَ الأنْصارِ، وذَلِكَ أنَّ النَّبي ﷺ لَمّا نَزَلَ بِالمَدينَةِ مَعَ مَنْ هاجَرَ مَعَهُ، جَعَلَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ المُهاجِرينَ رَجُلًا أخًا لَهُ مِنَ الأنْصارِ.. فَتَوارَثَ المُتَآخونَ مِنْهُمْ بِتِلْكَ المُؤاخاةِ زَمانًا كَما يَرِثُ الإخْوَةُ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَةِ، كَما نُسِخَ التَّوارُثُ بِالتَّبَنّي بِآيَةِ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾؛ فَبَيَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ أنَّ القَرابَةَ هيَ سَبَبُ الإرْثِ لا الانْتِسابِ الجَعْلِيّ"[1].

دلالة التعبير بأولي الأرحام:

إذا انقطعت الأرحامُ فإنَّ غيرَها من العلاقات أوْلَى بالانقطاع وأجْدَرُ

المُرادُ بِأولي الأرْحامِ في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: الإخْوَةُ الحَقيقيّونَ؛ وفي هذا التعبير بيانٌ للسبب الذي جعل بَعْضَهُمْ أوْلَى بِبَعْضٍ في الميراثِ مِنْ وِلايَةِ المُتَآخينَ من المُهاجِرينَ والأنْصارِ، وهو ما يربطُهم من أواصرِ القربى ومظاهر الرحمة، التي يحرص الإسلام على أنْ تبلغ مداها فيما بينهم، وألا يتفوّق عليها ما يوجد بينهم وبين غيرهم، لأنَّه إذا انقطعت الأرحامُ فإنَّ غيرَها من العلاقات أوْلَى بالانقطاع وأجدرُ.

دلالة الموقع الإعرابيّ للجملة:

مِن أولويّات الإسلام أنْ تَبلُغَ الصِّلةُ والرَّحمةُ مداها بين ذوي القُربى

قولُ الله تعالى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ جملةٌ مكوَّنة مِنْ مبتدأ وخبر في محلّ رفع خبرٍ لقوله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، وقيل: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدلٌ من المبتدأ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، والخبرُ ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ والأول أرجح، لأنّ الإخبار بالجملة الاسميّة يفيد قوّةَ الكلام وتأكيدَه، ولأنّ المعنى حينئذ الإخبارُ عن أولي الأرحام بأنّه ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وفرقٌ بين هذا وبين الإخبار بأنّ بعضَ أولي الأرحام أوْلَى من بعض، فالمحكومُ عليه في الأوّل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، والمحكوم به: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، والمحكوم عليه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 270.

الثاني: ﴿بَعْضُهُمْ﴾، والمحكوم به: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ وهذه فروقٌ دقيقةٌ في وجوه الإعراب[1].

دلالة التّعبير بـ﴿أَوْلَىٰ﴾:

رابطةُ الرحم أوْلَى بالاعتبار في الإرث من رابطة الهجرة أو النصرة أو غيرهما

في التعبير باسم التفضيل ﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرًا لقوله ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: دلالةٌ على أنّ رابطةَ الرَّحِم والقربى أوْلى بالاعتبار في الإرث، وأشدُّ في استحقاقِ الميراث من روابطِ الهجرة أو النصرة أو الإيمان أو غيرها، لأنّ آصرةَ الرحم والقربى لها أثرٌ كبيرٌ في تقوية علاقات الأُسَر، وزيادةِ ترابُطِ المجتمع وتماسُكِه، وبقائها وامتدادها عبر الزمن.

معنى باءِ ﴿بِبَعْضٍ﴾:

علاقة الأقارب والأرحام يجب أن تكون كعلاقة الجزء بالجزء والعضو بالعضو

الباءُ في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وفي التعبير به دلالةٌ على ما يجب أنْ تكونَ عليه - أو تصيرَ إليه - علاقةُ الأقاربِ وأولِى الأرحام ببعضهم، وأنَّ الواجبَ أنْ تكون علاقتُهم ببعضهم كعلاقة الجزء بالجزء، والعضو بالعضو في الشعور والإحساس والمساعدة والنصرة؛ وكذلك في الميراث، فلا يرث أحدًا غيرُ ذي رحم منه، لأنَّه غيرُ لصيقٍ به ولا قريبٌ منه، والمعنى: (بَعْضُهُمْ أَوْلَى بحقِّ القرابة بِبَعْضٍ في جميعِ المنافع العامّة للدعوة والإرث والنصرة والصلة)[2].

نكتة تنكير (بَعْضٍ):

كلٌّ مفتقرٌ إلى مساندةِ أقاربِه، المطَّلِعون على أحواله أكثرَ من غيرهم

جيء بالمجرور (بَعْضٍ) نكرةً منوَّنةً في قول الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ لِما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من العموم والشمول والدلالةِ على افتقار جميع الأقاربِ لبعضهم، وشدّةِ احتياج الواحدِ منهم إلى أنْ يشعر به أهلُه وعشيرتُه، الَّذين هم أحبُّ الناسِ إليه،

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 291.

وأكثرُهم اطِّلاعًا وحرصًا عليه، وأشدُّهُم رحمةً به مِن غيرهم؛ ومِن ثمَّ كانوا أوْلَى وأجدرَ بأنْ يرثوه ويرثَهم.

معنى الظّرفيّة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

الجارّ والمجرور ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ باسم التفضيل ﴿أَوْلَىٰ﴾، وفيه دلالةٌ على أنّ هذه الأولويّةَ مثبَتةٌ مكتوبةٌ "في اللوح المحفوظ، أو فيما أوْحَى اللهُ إلى نبيِّه في هذه الآية، أو في آية المواريث"[1]، وأنَّها ليست مِنَ اخْتلاقِ أحدٍ أو مِن بنات أفكاره؛ فهي من ثوابتِ الدّين وأصوله، ومن تشريعاته التي يجب العملُ بمقتضاها، وعدمُ الحَيْدَةِ عنها.

ما أوحيَ به إلى الرَّسولِ تشريعٌ إلـهـيّ، يـجـبُ الأخـذُ به وعـدمُ الحَيْدَةِ عنه

نكتة إضافة الكتاب إلى اسم الجلالة:

في إضافة الكتاب إلى اسم الجلالة العَلَم في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: تشريفٌ للكتاب، وتقديسٌ لِما فيه، وحثٌّ على تعظيم تشريعاته بصفةٍ عامّة، وتشريعِ أولويّةِ ذوي الأرحام في ميراثِ بعضهم بخاصّة، ودعوةٌ إلى ضرورة العمل بمقتضاه، والعدولِ إليه وتركِ ما عداه؛ لِما يجمعه اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ الجليل من معاني التقديس والطاعة والعِلْم والإحاطة بما يُحَقِّق مصالحَ خلقِه، ويزيدُ ترابطَهم وتماسُكَهم.

تـشـريـعُ الـلـه تـعـالى يـراعـي مصالحَ خلقِه، ويزيدُ ترابُطَهم وتماسُكَهم

معنى ﴿مِنَ﴾:

يجوز أن يكونَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أَوْلَىٰ﴾، وتكونَ ﴿مِنَ﴾ تفضيليّةً، موضِّحةً أحَقّيةَ أولي الأرحام في ميراث ذويهم من الأجانب الذين لا تربطُهُم بهم صلةُ قرابة؛ والمعنى: (الأقرباءُ بعضُهم أوْلَى ببعضٍ في الميراث من المؤمنين والمهاجرين)، ويجوز أنْ يتعلّق الجارّ والمجرور

الأقـــاربُ مـن أهـل الإيـمـان أوْلَى بالميراث من الأجانب

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 524.

بقوله أوّلَ الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، وتكونَ ﴿مِنَ﴾ بيانيّةً لأولي الأرحام؛ والمعنى: (الأقرباء من هؤلاء أوْلَى بأن يرثوا بعضا من الأجانب)[1]، وكان المؤمنون يتوارثون بِحَقِّ الدين، وكان المهاجرون يتوارثون بِحَقِّ الهجرة، فنُسخ ذلك بهذه الآية.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ من قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هي التي لتعريف الجنس؛ وهي تدلّ - على جَعلِ ﴿مِنَ﴾ تفضيليّةً - بأنَّ هذا التشريعَ لا يَسْتَثْني أحدًا مِنَ الذين يتوارثون على أساس الدّين والهجرة، وأنَّ عليهم أن يتركوا ذلك المنهجَ إلى ما أمَرت به الآيةُ الكريمة من التَّوارث على أساس الرحم والقُربى، لامتداد هذا السببِ وبقائِه عبرَ الزمن، ولأنّه أشدُّ وأقوى في تماسُكِ علاقاتِ المسلمين وزيادة ترابطهم وتلاحمهم.

تشريعُ الله لا يستثني أحدًا من الّذين يَتوارثون على أساس الدّين والهجرة

نكتة تقديم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

المؤمنون في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أُريدَ بهم خُصوصُ الأنْصارِ، بِقَرينَةِ مُقابَلَتِهم بالمُهاجِرينَ، والمقصودُ بهم: أصْحابُ الإيمانِ الكامِلِ. "وفي تقديمِهم تَشْريفٌ لهم، وتَنْويهٌ بإيمانِهم، لِأنَّهُمْ سَبَقوا بإيمانِهِمْ قَبْلَ كَثيرٍ مِنَ المُهاجِرينَ الَّذينَ آمَنوا بَعْدَهُمْ؛ فَإنَّ الأنْصارَ آمَنوا دُفْعَةً واحِدَةً لَمّا أبْلَغَهُمْ نُقَباؤُهُمْ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ إيّاهُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانيَةِ، فالمَعْنَى: (كُلُّ ذي رَحِمٍ أوْلَى بإرْثِ قَريبِهِ مِنْ أنْ يَرِثَهُ أنْصارِيٌّ إنْ كانَ المَيِّتُ مُهاجِرًا، أوْ أنْ يَرِثَهُ مُهاجِرٌ إنْ كانَ المَيِّتُ مِنَ الأنْصارِ)؛ فَيَكونُ هَذا ناسِخًا لِلتَّوارُثِ بالهِجْرَةِ"[2].

تشريفُ الأنصار والتنويهُ بسَبقِهم إلى الإيمان

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 524.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 271 بتصرف.

معنى ﴿إِلَّآ﴾:

الأجانب لا يأخذون شيئًا من الميراث إلا بوصيّة

﴿إِلَّآ﴾ حرفُ استثناءٍ، وقولُه تعالى ﴿أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ مصدرٌ مُؤَوّلٌ مستثنًى، والاستثناءُ فيه يجوز أن يكون متّصلًا، والمستثنى منه هو الشّيءُ، وهو أعمُّ العامِّ، المفهومُ من قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، بمعنى النفع والإحسان، كما تقول: القريب أولى من الأجنبيّ إلا في الوصيّة، تريد: أنّه أحقُّ منه في كلِّ نفعٍ من ميراثٍ وهبَةٍ وهديّة وصدقة وغير ذلك، إلّا في الوصية؛ والمراد بفعل المعروف: التوصية، لأنّه لا وصيّةَ لوارث[1]، ويجوز أن يكونَ الاستثناءُ منقطعًا، وحينئذ تكون ﴿إِلَّآ﴾ بمعنى: لكن، وكأنّه قيل: (لا توَرِّثوا غيرَ أولي الأرحام؛ لكنّ فعلَكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفًا - بأن توصوا لمن أحببتم منهم بشيءٍ - أمرٌ جائزٌ)؛ ويكون ذلك بالوصيّة لا بالميراث[2].

نكتة التّعبير بـ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

استحضار صورة الموصي وهو يؤكّد إعطاءَ بعض الأجانب شيئا من تركته

عبَّر النظمُ الكريمُ في قوله ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ عنِ التوصية للأجانب بشيءٍ من التركَة بقوله ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾، الموضوعِ مادّتُه "لإحداث الشيء من عملٍ وغيره"[3]، للدلالة على أنّ حصولَ الأجانبِ على شيءٍ من تركَةِ المُتَوَفَّى صار - بعد هذا التشريع - أمرًا غيرَ إلزاميّ، ولا يمكن حصوله وتنفيذه إلّا بوصيّةٍ مستحدَثةٍ بخصوصه من صاحب المال قبل وفاته؛ بجانب ما تُفيدُه صيغةُ المضارع التي جاء عليها من استحضار حالة الوصيّة التي تمَّتْ، وكأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ، يبدو فيها الموصي وهو يؤكّد ضرورةَ إعطاءِ فلانٍ وفلانٍ من الأجانب شيئًا من المال الذي سيتركه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 524.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).

بلاغة الالتفات في ﴿تَفۡعَلُواْ﴾:

التنبيهُ إلى أنّ الوصيةَ للأجانب بشيءٍ من المال برهانُ الإيمان ودليلُه

كان مقتضى الظاهر في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أن يأتيَ التعبيرُ بصيغة الغائب، فيقال جَرْيًا على ما سبق: (إلّا أن يَفعلوا إلى أوليائهم معروفًا)؛ إلّا أنّ النظم الكريم عَدَل عن صيغة الغائب إلى صيغة الخطاب في قوله ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ لما يفيده هذا الأسلوبُ مِنْ تنبيه المخاطَبين ولَفْتِ أنظارهم إلى أهمّيَّةِ المعنى الذي تمّ التعبيرُ عنه بصيغةٍ مختلِفة، فيفهمون أنّ أمرَ التوصية للأجانب بشيءٍ من المال داخلٌ في حقيقة الإيمان الذي سبق التعبيرُ عنهم به، ودليلٌ وبرهانٌ على تَغَلْغُلِه في قلوبهم؛ فقد جاء النظم لافتًا إلى أسلوب الخطاب ليأخذ المخاطبون منه أنّهم مُتَّصِفون بالرسوخ في الإيمان الذي مضى ما دل عليه في آية الأولويّة من التعبير بالوصف: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، فيحُثُّهم ذلك على فعل المعروف[1].

نكتة تعدية الفعل بـ﴿إِلَىٰٓ﴾:

إيصالُ المالِ الموصَى به إلى الأولياءِ تكريمٌ لهم

عُدّي الفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ إلى مفعوله ﴿أَوۡلِيَآئِكُم﴾ بحرف انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ لتضمُّنِه معنى الإيصال والإسداء؛ وفيه نوعٌ من تكريم الأولياء والشعور بالسعادة والرضا عن المعروف الذي أوصِل إليهم.

غرضُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾:

إذا كان إرثُ الأولياء قد أُبطِل، فإنّ مواساتِهم وإسداءَ المعروفِ إليهم قائمٌ باقٍ

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ على المفعول ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾: هو لفتُ أنظارِ المخاطَبين والاهتمام بالإحسان إلى أصحابِ الولايَةِ بالإخاءِ والحِلْفِ، وبيانُ أنِ الَّذي أُبْطِلَ ونُسِخَ هوَ انْتِفاعُ الإرْثِ، وبَقيَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 292.

حُكْمُ المواساةِ وإسْداءُ المَعْروفِ بِمِثْلِ الإنْفاقِ والإهْداءِ والإيصاءِ[1] قائمًا موجودًا.

نكتة تنكير ﴿مَّعْرُوفًا﴾:

جيء بالمفعول ﴿مَّعْرُوفًا﴾ في قول الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ نكرةً لِما يُفيده التنكيرُ من العموم والشمول؛ فالمعروفُ الموصَى به للأولياء لا يُشترط فيه العِظمُ والضَّخامةُ، إذْ من الممكن أنْ يكون قدرًا يسيرًا، ولكنّ الحثَّ عليه والتنبيهَ إليه من باب زيادة الترابط وتأليفِ القلوبِ وجمعِ الكلمة.

ما يُخصَّصُ للأولياء من التَّركة يزيدُ في الترابط ويجمعُ القلوب

نكتة الفصل في جملة الفاصلة:

جاءت جملةُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ مفصولةً عمّا قبلها لأنّها بمثابة التوكيد والتقرير للتشريعات التي تقدّم ذكرُها في الجُمَل السابقة؛ فَفُصِلَت عنها كما يُفصل التّابعُ عن متبوعه، فيما يُعرف بكمال الاتّصال، الذي يشتد فيه اتّصال الجمل ببعضها من ناحية المعنى، لدرجةٍ تغنيها عن الواصل الحرفيّ.

نكتة التّعبير بـ﴿كَانَ﴾:

في التعبير بفعل التكوين ﴿كَانَ﴾ ماضيًا في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ دلالةٌ على وجود هذه التشريعات، وتأكيدٌ لثبوتها مُسَطَّرَةً في كتاب الله سبحانه من قديم الأزل، وأنها ليست مستحدثةً ولا مفتعَلةً، وأنّ ما سبقها من تشريعاتٍ أو اجتهاداتٍ تمَّ الأخذُ بها في أوقاتٍ معيَّنةً كان بمثابة التمهيد لها، أوالتَدَرُّج بالنّاس للوصول إليها، أو لارتباط ذلك بمصالحَ مؤَقَّتة تعود عليهم في تلك الأزمنة.

التشريعاتُ التي ورد ذكرُها في السورةِ الكريمةِ أزليّةٌ غيرُ مستحدثةٍ

دلالة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

عبَّر النظمُ عن المشار إليه من الأحكام التي تمَّ تشريعها باسم الإشارة الموضوع للبعيد في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ

تشريعاتُ السورة لها عظيمُ الأثر في تماسكِ المجتمعِ وترابطِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.

مَسْطُورًا﴾ لتعظيم تلك التشريعات، وتفخيمها بإنزالها منزلةَ الشيء البعيد الذي لا يُتوصَّل إليه بنوع من السهولة واليسر؛ ويُمكن أن يكونَ فيه أيضًا إشارةٌ إلى عِظَم ما يترتَّبُ عليها من نتائجَ وآثارٍ في تماسك المجتمع المسلم وترابطه.

معنى الظرفيّة ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

جي بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مجرورًا بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ المفيدِ للظرفيّة في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ لتأكيد كَونِ هذه التشريعات مثبتةً في اللَّوح المحفوظ، ومكتوبةً فيما أوْحَى اللهُ إلى نبيّه، وأنَّها ليست مِنَ اخْتلاق أحدٍ أو مِن بنات أفكاره، بل هي من ثوابتِ الدّين وأصولِه، ومن تشريعاته التي يجب العمل بمقتضاها وعدمُ الحَيْدَةِ عنها.

تشريعاتُ القرآنِ ليست من اختلاقِ أحدٍ، أو من بناتِ أفكارِ بشر

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

(أل) الدّاخلةُ على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ لتعريف العهد، والمقصود: كتاب الله المعهود المعروف؛ وهو القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ[1]، أو ما كَتَبَهُ الله تعالى عَلَى النّاسِ وفَرَضَهُ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 24][2].

شرعُ اللهِ مفروضٌ على النّاس، مسطورٌ في القرآن، محفوظٌ في اللّوح

دلالة التعبير بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

جاء في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ التعبيرُ عن الوحي النازلِ إلى رسول الله ﷺ، المتضَمِّنِ هذه التشريعات وغيرها بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفي هذا التعبيرُ ما يدعو إلى الثقة في هذه التشريعات، ويدعم تلقّيَها والعملَ بها بنوع من الراحة والاطمئنان؛ لأنَّ ما نطق به الرسولُ وأبلغَه إلى الناس بصفة عامّة، وما أبلغه إليهم بخصوص الظهار والتبنّي والميراث والوصيّة: كلُّ ذلك

تشريعاتُ القرآن محفوظةٌ في السطورِ وفي الصدورِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.

يتوافق مع المكتوب في كتاب الله تعالى المحفوظِ عنده، من غير شكٍّ أو افتراء.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿مَسْطُورًا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾: هو تقوية وتأكيدُ ثبوتِ هذه التشريعات في كتاب الله تعالى ووحيه الذي أنزله على رسوله من قديم الأزل، لئلّا يظُنَّ أحدٌ أنَّها تخضعُ للأهواء والمصالحِ الخاصّة بأحد دون أحد، أو بفريق دون فريق.

التشريعُ القرآنيُّ لا يخضعُ لهوى أحدٍ ولا لمصالِحه

دلالة التّعبير بـ﴿مَسْطُورًا﴾ مادّةً وصيغةً:

التعبيرُ عن خبر الفعل الناسخ باسم المفعول ﴿مَسْطُورًا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ فيه تصريحٌ بثبوت أحكام الظِّهار والتَّبنّي والميراث والوصيّة في مواضعَ متعددةٍ في كتاب الله تعالى، وتأكيدٌ لقيام الملائكة أو كُتّاب الوحي بكتابتها وتسطيرها، حفظًا لها ومحافظةً عليها من التبديل والتحريف من قِبَل ذوي الأغراض ومتَّبعي الأهواء.

تشريعاتُ القرآنِ والسورةِ تتطابق تمامًا مع ما هو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ

نكتة تنكير ﴿مَسْطُورًا﴾:

جاء الاسم المشتقُّ ﴿مَسْطُورًا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ منكَّرًا ومُنَوَّنًا، وفيه نوعٌ من تفخيم المكتوب وتعظيمه، وإشارةٌ إلى أنَّ الآمِرَ بتسطيره معروفٌ، وهو الله ﷻ، وهو ما يُضْفي عليه نوعًا مِنَ القداسةِ والثِّقَةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أولو وآل وأهْل:

(أولو) يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، ويشمَل كلَّ من كان قريبًا بأيِّ شكل من الأشكال، فيشمل الرحِمَ والصداقة والصحبة؛ ويُخَصَّصُ بما تتمُّ

(أولو) يدلُّ على قربٍ، ويُخَصَّص بما يُضافُ إليه

إضافته إليه، فيقال: أولو الأرحام، لذوي القرابة من جهة الرحم، ويقال: أولو العزم لذوي القرابة من جهة العزم، وهكذا.

و(الآل) خاصَّة الرجل من جِهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، ويضاف للأشرَف الأفضل، تَقول: آل الرجل لأهله وأصْحابه، ولا تَقول: آل البَصْرَة، وآل العلم؛ وقالوا: آل فِرْعَوْن أتباعه، وكَذَلِكَ آل لوط، وقالَ المبرد: إذا صغرت العَرَب الآل قالَت: أهل، فَيدلّ على أنّ أصل الآل الأهْل؛ وقالَ بَعضُهم: الآل عيدان الخَيْمَة وأعمدتها، وآل الرجل مشبَّهون بذلك، لأنّهم مُعْتَمَدُه؛ والَّذي يرْتَفع في الصحارى آل، لِأَنَّهُ يرْتَفع كَما ترْتَفع عيدان الخَيْمَة، والشخص آل لِأَنَّهُ كَذَلِك[1].

و(الأهْل) يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، ويضاف للزمان والمكان: فَمن جِهَة النّسَب قَوْلُك: أهل الرجل لِقَرابَتِهِ الأدنَين، ومن جِهَة الاِخْتِصاص تقول: أهل البَصْرَة، وأهل العلم، وأهل الزمان، وأهل الخياط[2]، ولكون الحديث عن ذوي القرابة من جهة الرّحم اختير لفظ (أولو).

(أزْواج النَّبيِّ) و(نِساء النَّبيِّ):

الأول في سياق التكريم والتخيير، والثاني في سياق اختلافهنّ عن غيرهنَّ

التعبيران وردا في الذكر الحكيم، مقصودًا بهما: اللائى تزوجَهُنَّ رسولُ الله ﷺ بنكاحٍ، وبَنَى بهنَّ، وصِرن يُعرفن بين المسلمين بـ"أمّهات المؤمنين"؛ فلا يدخل فيهنَّ مِلكُ اليمين، ولا اللاتى لم يدخلْ بهنّ الرسولُ.

ولكلٍّ منهما السياقُ الذي يناسبُه: فإذا كان السياق لبيان المكانة والمنزلة والتخيير والنصيحة عُبِّر بمصطلح الأزواج، كما في سورة الأحزاب [59، 53، 52]، لِما تحمِلُه كلمة الزوج من معنى المزاوجة والاقتراب والاقتران الحاصل بينهنَّ وبين رسول الله ﷺ في هذه

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.
(2) الراغب، مفردات اللغة: (آل)، العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

السياقات؛ وكذلك الأمر في هذه الآية، فالحديث عن تشريف الزوجات بجعلهنّ أمّهاتٍ للمؤمنين.

وإذا كان السياق لبيان اختلافِهنَّ عن عامّة النساء عُبِّر بالثاني، كما في آيات سورة الأحزاب [32، 30]؛ لما يوحي به لفظُ النساء من الدلالة على الطبائعِ الأنثويّة التي فَطَر الله تعالى النساءَ جميعًا عليها.

الفعل والصُّنع والعمل:

الفعل يدلّ على إحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ؛ تقول: فَعَلْتُ كَذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا، وكانَتْ مِنْ فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أَوْ قَبيحَةٌ[1]، والصُّنع يدلّ على عَمَلِ الشَّيْءِ صُنْعًا؛ يقال: امْرَأَةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذِقَيْنِ فيما يَصْنَعانِه[2]، والعمل يدلّ على إيجاد الأثر في الشَّيْء؛ يُقال: فلان يعْمل الطين خَزَفًا، ويعْمل الخوص زنبيلا، والأديمَ سقاء، ولا يُقال يفعل ذَلِك لِأن فعل الشَّيْء هوَ إيجاده[3].

الفعلُ إحداث شيءٍ من عدم، والصُّنعُ ممّا له أصلٌ، والعمل إيجاد أثرٍ فيه

فالفعلُ إحداث شيءٍ من عدم، والصُّنعُ ممّا له أصلٌ موجود، والعمل إيجاد أثرٍ فيه، ولمّا كان الأولياء من غير الأقارب لا حظَّ لهم في الميراث أو التركة، أوثر التعبير بالفعل، لأنه بمثابة إحداث شيء وإيجاده.

التّسطير والكتابة والذّكر:

يدلّ التسطير عَلَى اصْطِفافِ الشَّيْءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ، وكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، وتدلّ الكتابة على جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ؛ يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، ويَقولونَ: كَتَبْتُ البَغْلَةَ، إذا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِها بِحَلْقَةٍ[4]، أمّا الذّكر فيدلّ على خلافِ النسيان، يُقال: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أيْ لا تَنْسَهُ[5].

الكتابة جمعُ الحروف، والتّسطيرُ اصطفافُ المكتوب، والذّكر حفظٌ من النسيان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

فالتسطير يُعبَّر به عن شكلِ المكتوبِ وهَيْأتِه، والكتابةُ تعني ضَمَّ الحروف إلى بعضها للدلالة على المعاني، والذِّكر يُطلق على ما سبقه جهلٌ وعدم معرفة أو نسيان، ومن ثمَّ، فاصطفاء لفظ (مسطور) يناسب سياق الآية من حيث تأكيدها حفظَ التشريعات المذكورة فيها بكتابتها سطرًا سطرًا، حفظًا لها من التّبديل والتّحريف.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»